ضرورة تفعيل مقاصد القرآن وتحيينها وفق مقتضيات الراهن.

بقلم: أ.د فتيحة محمد بوشعالة

مقدمة:

تتمحور فكرة هذه الورقة البحثية حول إشكالية مفادها: هل مقاصد القرآن التي استنبطها علماء الأمة باستقراء القرآن الكريم بإمكانها تغطية المتطلبات الراهنة للأمة؟ أم تحتاج إلى تفعيل وتحيين؟

صلاحية القرآن لكل زمان ومكان تقتضي تجدد مفاهيم المقاصد فيه وفق مقتضيات الراهن، وتحتم استنباط مقاصد من القرآن تخدم رسالة الإسلام في هذا العصر، فآيات الكتاب حمالة لأوجه من المعاني والفهوم تلائم كل عصر، وهذا من إعجاز الكتاب العزيز ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾

ولا يخفى على ذي لب أن القرآن الكريم كتاب هداية ومنهاج حياة، وأن من اقتفى أثره وأخذه بقوة ما ضل وما شقي وما ذل. **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ ال نحل: ،

فكتاب الله فيه بيان وتبيين وتوضيح لكل شيء يحتاجه الإنسان في حياته الدنيا وفي آخرته.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣ ﴾ الأعراف:٢٠٢

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾ الإسراء: ٩

فلماذا لم نجد كل تلك المقاصد مجسدة في حياة الأمة الإسلامية؟ لماذا الأمة ليست على بصيرة في ركب الأمم؟ لماذا لم تهتدي إلى أقوم السبل التي تجعلها خير الأمم؟ لماذا لم تتمكن من أخذ الريادة بين الأمم في شتى المجالات رغم أن القرآن تعهد بتبيان كل شيء لها؟

وإذا رجعنا إلى تراثنا نجد علماء الأمة الأجلاء قد فصلوا في الدرس المقاصدي أيما تفصيل وبينوا مقاصد الشرع والدين التي استنبطوها من القرآن أصالة ومن السنة تفصيلا. فكادوا يجمعون على أنها

خمسة كلية: حفظ الدين وحفظ النفس والعقل والنسل والمال. وأنها على مراتب: ضرورية وحاجية وتحسينية.

وقد فقه سلفنا الصالح القرآن حق فقهه، وأعملوا مقاصده حق الإعمال فأنتجوا حضارة تباهت بها البشرية قرونا، وحافظ المسلمون في هذا العصر على القرآن الكريم ولكنهم أغفلوا مقاصده، فخرجوا من السياق الحضاري وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ الأنعام:٤٠١، فالبصائر التي جاء بها القرآن عمينا عليها فضللنا الطريق.

يقول محمد الصالح صديق في كتابه مقاصد القرآن، في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾الأعراف: ٢٣

"والذين يؤمنون بأن ما تزخر به هذه الحياة من نعم وطيبات إنما هو للمؤمنين في هذه الدنيا، وإن كان للكافرين فيها نصيب بالتبعية والمشاركة." والآن انعكست الآية، حيث صارت لهم أصالة وبعض منها لنا بالتبع، لأننا ابتعدنا عن مقاصد القرآن في هذا المجال، حيث نظرنا إلى مسألة الزينة التي تحدثت عنها الآية نظرة متاع الدنيا ومن ثم الزهادة فيها. في حين هي ترمي إلى ضرورة استخراج ما في هذا الأرض من محاسن ليستفيد منها المؤمنون، وأن ذلك من واجبات الأمة، حتى تكون في يدها هي وإن أفاد منها الكافرون فلا حرج، وقد فقه ذلك سلفنا الصالح، فاستغلوها أحسن استغلال، وكانوا يكرمون من خيراتها حتى غير المسلمين.[: عن سهيل بن أبي صالح عن رجل من الأنصار قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وهو بالعراق أن أخرج للناس أعطياتهم فكتب إليه عبد الحميد إني قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال قال فكتب إليه أن انظر كل من آدان من (2) غير سفه ولا سرف فاقض عنه فكتب إليه إني قد قضيت عنهم وبقي في بيت مال المسلمين مال فكتب إليه أن انظر كل بكر ليس له مال يشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه فكتب إليه إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال فكتب إليه بعد مخرج هذا أن

أنظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين][1][2]

تاريخ التأليف في علم المقاصد:

- نجد أن من كتب في مقاصد الدين هم الفقهاء والأصوليين، لذا كان جل تركيزهم على الكشف عن مقاصد التشريع في حين أن القرآن حوى كل أركان الدين: الشريعة والعقيدة والأخلاق والقصص والمواعظ. ولكل ذلك مقاصد رمى إليها القرآن الكريم سواء كانت تلك المقاصد كبرى أو صغرى.
- وأبرز من كتب في مقاصد الشريعة: الغزالي، الجويني، العز بن عبد السلام، القفال الشاشي وشيخه القرافي، البقولي، ثم جاء الشاطبي فأصل لعلم المقاصد تأصيلا جليا، وفي الأخير جاء محمد الطاهر بن عاشور، فجدد في هذا الفن.

"والناظر إلى الدراسات المقاصدية القديمة والمعاصرة، يجدها تمحورت أساسا حول الكليات الخمس بمراتبها الثلاث: الضرورية والحاجية والتحسينية. ولم تخرج عن هذه الدوائر، **حيث تركز البحث المقاصدي** حول إثباتها وتفسيرها وتقسيمها والترجيح بينها عند التعارض....بدءا ب**الجويني** ثم **الغزالي** ثم **العز بن عبد السلام** إلى أن جاء **الشاطبي** الذي أشبع المقاصد بحثا....إلى أن جاء **محمد الطاهر بن عاشور** فبنى على ما تركه الشاطبي مع إضافات جديدة معتبرة " [3].

---

[1]- تاريخ دمشق لابن عساكر (45/ 213)، و الأموال لابن زنجويه (2/ 565).

[2]- مقاصد القرآن، محمد الصالح صديق، ص 247.

[3]- المدخل إلى مقاصد القرآن، عبد الكريم حامدي ص7.

* – ويمكن أن نضيف إليها: الأوامر والمطالب التي فيها تعليل (لعلكم، ل، لعلهم، كي، حتى(ليس في كل المواضع).

أما مقاصد القرآن التي هي أشمل بكثير من مقاصد التشريع، حيث لا يخفى على أحد أن آيات التشريع لا تزيد عن سدس آي الكتاب العزيز، (عدد آيات القرآن 6236 وعدد آيات الأحكام حوالى 500 آية) فلم يكتب فيها الشيء الكثير عند علمائنا مقارنة بمقاصد التشريع،

والفقهاء والأصوليون سعوا لتقعيد قواعد كلية لفهم واستنباط مقاصد القرآن في التشريع، في حين أغفلوا مقاصد القرآن من حيث التقعيد والاستنباط في باقي القرآن الكريم الذي عدد آياته 6236 آية، وما كان من حديث عنها من حيث المقاصد هو تجزيئي لا يرقى لدرجة التقعيد وبيان مقاصده بالتفصيل المؤصل. بقول الطيب برغوث: "ويكفي ان نستحضر هنا، ضآلة حجم الاستثمار للقرآن الكريم في الساحة الفقهية والأصولية على سبيل المثال، حيث يحصر كثير من المشتغلين في هاتين المعرفيتين الهامتين، المادة العلمية القرآنية القابلة للاستثمار الفقهي المباشر بين 200-500 آية، وحتى ما يستثمر من بقية المادة المعرفية القرآنية الأخرى الهائلة في المجالات العقدية والفكرية والمنهجية والأخلاقية والتربوية والاجتماعية...فإن كثيرا ما تهيمن عليه النزعة الوعظية التجزيئية، الذاهلة عن النزعة السننية الكامنة في هذه الثروة القرآنية الضخمة."[4]

وممن فصل في بعضها الإمام العز بن عبد السلام في كتابه (نبذ من مقاصد الكتاب العزيز) والمطلع على الكتاب يدرك أنها ليست مقاصد في حقيقتها بل مسالك للكشف عن مقاصد القرآن، ولم يدع أنه أحصاها كلها ولهذا سماه (نبذ)*، حيث قال أن الغرض من التفسير هو الوقوف على مقاصد القرآن، وعدد من مقاصد القرآن أنواعا، "وعلى الجملة فمقاصد القرآن الكريم أنواع: الطلب، الإذن والإطلاق، النداء ، مدح الأفعال في

[4]- مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، الطيب برغوث، ص 9.

القرآن، مدح الفاعلين لأجل الفعل الذي وصفوا به، ذم الأفعال، ذم الفاعلين لأجل الفعل الذي وصفوا به، الوعد بالخير العاجل، الوعد بالخير الآجل، الوعيد بالشر العاجل، الوعيد بالشر الآجل، الأمثال، التكرير. .."[5]

- والحقيقة أن العز –رحمه الله– تكلم عن المقاصد التي تفيد في الأمور الدينية وسكت عن المقاصد التي تفيد في الأمور الدنيوية مع أنها منصوص عليها في القرآن، وهي خادمة للمقاصد الكبرى للقرآن من معرفة الله وحسن عبادته، والتزام أمره ونهيه، ومن ذلك أمره إيانا بعمارة الأرض واستخلافه لنا فيها، وأمرنا بإصلاحها. فقال في ص 70: "والغرض من التفسير الوقوف على مقاصد القرآن المفيد للأمور الدينية.."

وفي الحقيقة المخول للكتابة في مقاصد القرآن هم أهل التفسير، وقد فعلوا ذلك ولكن تطبيقا وليس تنظيرا في تفاسيرهم، وكتب البعض في مقدمات كتبهم إشارات عن مقاصد القرآن، مثل تفسير ابن جزي الكلبي (741 هـ): (التسهيل لعلوم التنزيل)، وتفسير القنوجي (فتح البيان في مقاصد القرآن). وغيرها

في حين نجد من المعاصرين من كتب في مقاصد القرآن واجتهد في التنظير لها منهم، الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ شلتوت.

"وإذا رجعنا إلى تراثنا نجد علماء الأمة الأجلاء قد فصلوا في الدرس المقاصدي أيما تفصيل وبينوا مقاصد الشرع والدين التي استنبطوها من القرآن أصالة ومن السنة تفصيلا. فكادوا يجمعون على أنها خمسة كلية: حفظ الدين وحفظ النفس والعقل والنسل والمال. وأنها على مراتب: ضرورية وحاجية وتحسينية....أما تقسيم مقاصد القرآن فلم يوجد من قسمها من القدماء...أما المعاصرون فلعل أبرز الذين أولوا عناية خاصة بهذا الموضوع الإمامان **محمد رشيد رضا ومحمد الطاهر بن عاشور**.

---

[5]- نبذ من مقاصد الكتاب العزيز، العز بن عبد السلام، ص 71 وما بعدها حتى 80 ملخصا مختصرا.

رشيد رضا: مقاصد القرآن في إصلاح نوع الإنسان وأوصلها إلى عشرة أنواع. منها الإصلاح لأركان الدين، تصحيح عقائد البشر، الإصلاح الاجتماعي والإنساني والسياسي، منع الغلو، بيان حكم الإسلام السياسي، اصلاح نظام الحرب.....

محمود شلتوت: مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث: ناحية العقيدة، ناحية الأخلاق، ناحية الأحكام.

ابن عاشور: ان القرآن الكريم أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم، لتبليغهم مراد الله. فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية والاجتماعية والعمرانية.

تلخيص مقاصد ابن عاشور: الإصلاح العقدي، الأخلاقي، إصلاح النفس، الإصلاح العائلي، المالي، العقابي، الحربي، السياسي.

والمقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها ...أوصلها إلى ثمانية: اصلاح الاعتقاد، تهذيب الأخلاق، التشريع، سياسة الأمة، القصص والأخبار، التعليم، المواعظ والآثار، الاعجاز بالقرآن."[6]

تفعيل مقاصد القرآن:

ومقاصد القرآن كما جاء في أبسط وأظهر تعاريفها هي: " المقصد العام من نزول القرآن هو هداية الخلق وإصلاح البشرية وعمارة الأرض ... والمقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها." [7]

والسبب في إغفالنا لتلك المقاصد العامة هو فهمنا الخاطئ لمفهوم الهداية، ولمفهوم الصلاح وغفلتنا عن مقصد عمارة الأرض. ومن ثم يتحتم علينا إعادة تفعيل تلك المقاصد العامة للقرآن وتصحيح مفاهيمها، وتحيينها مع ما استجد من نوازل ومقتضيات العصر الراهن، حتى يتسنى للأمة العودة للشهود الحضاري المنوط

---

[6]- ملخص من كتاب المدخل إلى مقاصد القرآن، عبد الكريم الحامدي، ص 121-125.

[7]- مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، عبد الكريم حامدي، ص 27، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، 2008م.

بها في قوله تعالى:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ ال بقرة:٣٤١

والتفعيل والتحيين يكون بإعادة بعث تلك المقاصد القرآنية وإحيائها وتصحيح مفاهيمها، فمقصد الهداية عام وشامل لكل ما يرشد للحق ويدل عليه وليس قاصرا على شكل من أشكالها التعبدية فحسب، كما أن مقصد صلاح البشرية يشمل كل طرق ووسائل الإصلاح للإنسان من علوم وعبادات وتربية وتهذيب، ومقصد عمارة الأرض يحتم علينا تقنين مقاصد جزئية جديدة تخدمه، بالنظر إلى التطور الهائل الذي تشهده البشرية اليوم، فهذا الأمر من صميم مقاصد القرآن التي غفلنا عنها، فالمولى حين قال : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١ ﴾ هود: ١٦

حيث عمارة الأرض مقصد عظيم من مقاصد القرآن يتطلب أن ندرج تحته مقاصد رافدة له لتحقيقه، كمقصد إتقان العلوم الخادمة لعمارة الأرض، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فتعلم العلوم التجريبية والتقنية والإنسانية وإتقانها لتعمير الأرض من آكد مقاصد القرآن الكريم. وليس من باب فضول العلم كما هو سائد.

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تتحدث عن الكون وتأمرنا بالتدبر والتفكر والنظر وإعمال العقل في ذلك، في السموات والنجوم والشمس والقمر، وهذا يؤسس لعلم الفلك وما قاربه من علوم، والنظر في الأرض والجبال والمياه يؤسس لعلم الجغرافيا وما قاربها من علوم، والنظر في تاريخ الأمم السابقة وما حدث لها وما جرى عليها من سنن كونية دعوة لعلم التاريخ وما قاربه من علوم حول الإنسان منذ القدم، والنظر في جسم الإنسان ومراحل تكوينه دعوة لعلم الطب وما قاربه من علوم، والنظر في النفس البشرية وأمراضها وأحوالها وأنواعها في القرآن الكريم دعوة لعلم النفس وما قاربه من علوم، وهلم جرا من أصول العلوم التي نص عليها الوحي.

"وإذا كان الوحي يساهم مساهمة فاعلة في تشكيل الرؤى الكلية للعلوم الطبيعية وإذا افترضنا أنه لا يمكن دخوله في جزئيات هذه العلوم ذات الطبيعة المادية؛ حيث يمكن إدراك هذه الجزئيات من الواقع المادي المحسوس مباشرة في أكثر الأحيان. فإن هذا الافتراض في العلوم الاجتماعية والإنسانية غير مقبول ابتداء؛ إذ أن هذه

العلوم تحتاج إلى الوحي ليس في تشكيل الرؤى الكلية ولا في بلورة النظريات فحسب بل يتعدى الأمر ذلك إلى جزئيات هذه العلوم وتفاصيلها الدقيقة أيضاً، إذ أن طبيعة بنائها يقتضي ذلك."[8]

كما أن مقصد حفظ الدين الذي هو من رأس المقاصد يتطلب أن ندرج تحته مقاصد جزئية له تكون رافدة له، كمقصد الإعداد العسكري ومقصد الصناعة الحربية، فذلك من أوجب المقاصد التي ينبغي إدراجها في منظومتنا التعليمية .

"إنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية لما كانت ذات طبيعة قيمية فقد احتلت المكانة السامية التي كان يحتلها وحي السماء في إرشاد الناس وتوجيههم لما يصلحهم دون الاستعانة بمعطيات هذا الوحي الأمر الذي جعلها تتخبط تخبطاً شديداً دون أن تصل إلى شيء مقبول.

- لما لم تجد العلوم الاجتماعية والإنسانية بعد استبعاد الوحي من سلطة مرجعية ترتكز عليها فقد اتخذت هذه العلوم — من العلوم الطبيعية سلطة مرجعية تحاول تقليدها في كل شيء؛ رغم الاختلاف الكبير بين الطبائع في كلا النوعين من العلوم، ولأجل ذلك ظهرت المفارقة الكبرى في نظريات هذه العلوم، الأمر الذي يستوجب إعادة الوحي إلى مضمار المعرفة حتى يخرج هذه العلوم من مآزقها المعرفية.
- لما احتلت هذه العلوم الاجتماعية والإنسانية المكانة العالية التي كان يحتلها الوحي في توجيه الناس وإرشادهم وأصبحت بديلاً له رغم عدم اعترافها بمعطياته – كانت ثمرة ذلك أنها لم تبن نفسها بناء صحيحاً ولا

[8]- - الملتقى العلمي للتفسير وعلوم القرآن 23 مصدرية القرآن والسنة للمعرفة . ملتقى أهل التفسير.

https://al-maktaba.org/book/31871/16681

اتخذت سلطة مرجعية مناسبة ولا قدمت حلولاً معقولة للمشكلات خاصة مشكلات العالم الإسلامي المعاصر.

تحتاج العلوم الطبيعية إلي الوحي في بلورة الرؤى الكلية فضلاً عن المرامي والأهداف وصياغة الفروض.

-إذا كانت العلوم الطبيعية تحتاج إلي الوحي فإنّ العلوم الإنسانية والاجتماعية أكثر حاجة للوحي، إذ إنّ طبيعة العلوم الإنسانية والاجتماعية قيمية ولهذا يكثر فيها التنظير:."[9]

- أرى أن هناك مقاصد أنية ومقاصد نهائية، والأولى مقدمات للثانية، فمثلا تدبر القرآن مقصد آني (ليدبروا آياته) فهو أنزل القرآن لنتدبره، ولكن الأمر لا يقف عند هذا المقصد، بل يتعداه لآخر وهو العمل به وحسن اتباعه (يتلونه حق تلاوته) (خذ الكتاب بقوة) ووراء هذا وذاك مقصد أعظم وهو النهائي وهو الامتثال والعبودية ونيل رضى الله وحبه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، (

أما الجنة والنعيم فهي ليست مقصدا بل ثمرة. (جزاء بما كانوا يعملون) والآيات التي جاءت تتحدث عن السعي للجنة وما قرب إليها من أعمال فهي للتحفيز والتشجيع على العمل (سابقوا...سارعوا....)

يقول العز بن عبد السلام : " أنزل كتابه الكريم نصائح لعباده ليديروا آياته، فيعملوا بمحكمه ويؤمنوا بمتشابهه، ليسعدوا في الدنيا بمعرفته وطاعته ويفوزوا في الآخرة بقربه وكرامته." [10]

نفهم من كلامه: من مقاصد القرآن أنه نصائح للعباد ينتصحوا به، ثم المقصد التالي العمل بالمحكم والايمان بالمتشابه، ثم المقصد الذي بعده وهو الأخير: ليسعدوا بمعرفته وطاعته في الدنيا وبقربه وكرامته في الآخرة.

والعز أعطى نماذج من مقاصد القرآن، ولهذا سماه (نبذ) والنماذج التي قدمها جزئية وليست كلية جامعة.

فلا بد من مراعاة هذه المقاصد بهذا الترتيب في قراءة القرآن وفهمه والعمل به، حتى لا تغيب الأولويات ويختل تعاملنا مع القرآن، فنركز على المقاصد المرتبة آخرا ونهمل المرتبة أولا، فتضيع مصالح الأمة وتتيه.

---

[9]- المصدر نفسه.

[10]- نبذ من مقاصد الكتاب العزيز، العز بن عبد السلام، ص 16.

إعادة صياغة مقاصد القرآن:

- لا بد من إعادة صياغة مقاصد القرآن، بحيث تكون مقاصد كبرى نهائية، مقاصد متوسطة ومقاصد أولية، ومن ثمة وجب ترتيب تلك المقاصد حتى لا يرتبك العقل المسلم وتتشوش أفكاره وتتداخل الأولويات عنده فينحرف عن المهمة المنوطة به، أعطي مثالا على ذلك: كثير من الصوفية والزهاد والعباد نظروا إلى المقصد الأكبر وهو المقصد النهائي، وأغفلوا المقاصد التي قبله مثل عمارة الأرض وتهيئتها لعبادة الله العبادة الحقة، فخرجوا من سياق التاريخ والواقع وتركوا غيرهم يفعل ما يشاء في واقع الأمة.

- مثال آخر: حال المسلمين اليوم، حيث ركزوا في فهمهم لمقصد القرآن القاضي بفريضة العلم على العلوم الشرعية وأهملوا العلوم الأخرى، فسبقهم الغرب إليها وأخرجهم من السياق الحضاري بإهمالهم لها، في حين نجدها من صميم مقاصد القرآن، فكم من الآيات حثت على اكتشاف الكون، وعلى اكتشاف الأرض وسبر أغوارها، وعلى الوقوف على مكنونات النفس البشرية ومداركها، عيوبها وأمراضها وعلاجها، حتى أبدع الغرب في هذا الجانب في ما يسمى بعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي وعلم الأناسة أو الانثروبولوجيا، وغيرها من العلوم التي أشار إليها القرآن وحث على البحث فيها، فنجد في كتاب موضوعات القرآن الكريم كما هائلا من تلك العلوم إلى جانب العلوم الشرعية من توحيد وأحكام وإيمان وأخلاق: "العلاقات الإنسانية، العلاقات الأخلاقية، العلاقات الاجتماعية، العلاقات المالية، التجارة والزراعة والصناعة، العلاقات القضائية، العلاقات السياسية، اللغة واللسانيات، العلوم التجريبية: الإحياء، الإشارة الى ازدواجية المادة، الإشارة إلى الجاذبية، الإشارة إلى الذرة، الذبذبات الصوتية، طبقات الأرض، عبور الفضاء، الكيمياء، التسجيل الكهرطيسي، خلق الإنسان وتكوينه، البحار، الجبال، الحيوانات الحشرات، الرياح، السحاب، سرعة النور، الصحة، الضغط الجوي، غزو الفضاء، الغلاف الجوي، لغة

الحيوان، النبات، الفلك، الفنون، الكواكب، الملاحة، الطب، الديانات، القصص، التاريخ والعمران.

- كل هته العلوم أشار إليها القرآن وأعطى مفاتيحها ولكننا غفلنا عنها. لأننا نؤمن كلنا بأن القرآن الكريم كتاب هداية وكتاب علم ومعرفة، ولكن عمليا نؤمن به كونه كتاب هداية وعلوم شرعية فحسب، وفي هذه الآونة الأخيرة بدأ العلماء يهتمون به ككتاب علم(تجريبي) في جانبه الإعجازي، أما التأصيل منه لبناء علوم حديثة فلم نرتق إلى تلك الدرجة بعد.

- (وأعدوا لهم) أمر يقتضي الوجوب ، وعالم اليوم كل الإعداد يعتمد على العلم المتطور مما يتوجب علينا تعلم هذه العلوم التي لا يتم الاعداد إلا بها.

- وأحسن من لخص مقاصد القرآن الكريم على أساس تراتبي الإمام ابن اجزي في مقدمة تفسيره:

"فاعلم أنّ المقصود بالقرآن دعوة الخلق إلى عبادة الله وإلى الدخول في دينه، ثم إنّ هذا المقصد يقتضي أمرين، لا بد منها، وإليهما ترجع معاني القرآن كله: أحدهما بيان العبادة التي دعي الخلق إليها، والأخرى ذكر بواعث تبعثهم على الدخول فيها وتردّدهم إليها، فأما العبادة فتنقسم إلى نوعين، وهما أصول العقائد وأحكام الأعمال.

- وأما البواعث عليها فأمران وهما: الترغيب والترهيب، وأما على التفصيل فاعلم أنّ معاني القرآن سبعة: هي علم الربوبية، والنبوة، والمعاد، والأحكام، والوعد، والوعيد والقصص. فأما علم الربوبية: فمنه إثبات وجود الباري جل جلاله، والاستدلال عليه بمخلوقاته، فكل ما جاء في القرآن من التنبيه على المخلوقات، والاعتبار في خلقة الأرض والسموات، والحيوان والنبات. والريح والأمطار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وغير ذلك من الموجودات، فهو دليل على خالقه، ومنه إثبات الوحدانية، والردّ على المشركين،

والتعريف بصفات الله: من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر، وغير ذلك من أسمائه وصفاته، والتنزيه عما لا يليق به.

- وأما النبوّة: فإثبات نبوّة الأنبياء عليهم السلام على العموم، ونبوة محمد صلّى الله عليه واله وسلّم على الخصوص، وإثبات الكتب التي أنزلها الله عليهم، ووجود الملائكة الذين كان منهم وسائط بين الله وبينهم، والردّ على من كفر بشيء من ذلك، وينخرط في سلك هذا ما ورد في القرآن من تأنيس النبي صلّى الله عليه وسلّم وكرامته والثناء عليه، وسائر الأنبياء صلّى الله عليه وعليهم أجمعين.
- وأما المعاد فإثبات الحشر، وإقامة البراهين، والردّ على من خالف فيه، وذكر ما في الدار الآخرة من الجنة والنار، والحساب والميزان، وصحائف الأعمال وكثرة الأهوال، ونحو ذلك.
- وأما الأحكام: فهي الأوامر والنواهي وتنقسم خمسة أنواع: واجب، ومندوب، وحرام، ومكروه، ومباح. ومنها ما يتعلق بالأبدان: كالصلاة والصيام، وما يتعلق بالأموال كالزكاة، وما يتعلق بالقلوب كالإخلاص والخوف والرجاء وغير ذلك.
- وأما الوعد: فمنه وعد بخير الدنيا من النصر والظهور وغير ذلك، ومنه وعد بخير الآخرة وهو الأكثر كأوصاف الجنة ونعيمها.
- وأما الوعيد: فمنه تخويف بالعقاب في الدنيا، ومنه تخويف بالعقاب في الآخرة وهو الأكثر: كأوصاف جهنم وعذابها. وأوصاف القيامة وأهوالها، وتأمّل القرآن تجد الوعد مقرونا بالوعيد، قد ذكر أحدهما على إثر ذكر الآخر، ليجمع بين الترغيب والترهيب، وليتبين أحدهما بالآخر، كما قيل:
- فبضدّها تتبين الأشياء وأما القصص: فهو ذكر أخبار الأنبياء المتقدّمين وغيرهم كقصة أصحاب الكهف، وذي القرنين. فإن قيل: ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه الأوّل: أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى، ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى: الثاني: أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريق الإطناب. وفي مواضع على طريق الإيجاز، لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين.

- الثالث: أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد فتعدّد ذكرها بتعدّد تلك المقاصد، فمن المقاصد بها إثبات نبوة الأنبياء المتقدّمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذّبهم بأنواع من المهالك. ومنها إثبات النبوة لمحمد صلّى الله عليه وسلّم لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا [هود: 49] ومنها إثبات الوحدانية. ألا ترى أنه لما ذكر إهلاك الأمم الكافرة قال: فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ [هود: 101] ومنها الاعتبار في قدرة الله وشدّة عقابه لمن كفر. ومنها تسلية النبي صلّى الله عليه وسلّم عن تكذيب قومه له بالتأسي بمن تقدّم من الأنبياء: كقوله: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ [الأنعام: 34] ومنها تسليته عليه السلام ووعده بالنصر كما نصر الأنبياء الذين من قبله. ومنها تخويف الكفار بأن يعاقبوا كما عوقب الكفار الذين من قبلهم، إلى غير ذلك مما احتوت عليه أخبار الأنبياء من العجائب والمواعظ واحتجاج الأنبياء. وردّهم على الكفار وغير ذلك. فلما كانت أخبار الأنبياء تفيد فوائد كثيرة: ذكرت في مواضع كثيرة. ولكل مقام مقال."[11].

- ونلاحظ أن ابن جزي أغفل في المقاصد عمارة الأرض، وهي داخلة في مقصد العبادة، فلكي نعبد الله علينا أن نعمر الأرض ونحافظ على استمرار النوع البشري ، ولتحقيق ذلك يستلزم نشأة علوم كثيرة تخدم مقصد العمارة حسب الزمان والمكان، وفي عصرنا هذا نحن مطالبون بعلوم عديدة أمرنا بها القرآن وغفلنا عنها وسبقنا فيها غيرنا على غير منهاج الوحي وعلى غير مقصد العبادة والعمارة والاستخلاف.

11- تفسير ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، المقدمة الأولى، 1/14-15. تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى - 1416 هـ.

- **من المقاصد الكبرى:**

1/معرفة الله حيث نجد عددا كبيرا جدا من الآيات يتحدث عن الله تعالى، يعرفنا بذاته من خلال أسمائه صفاته، أفعاله.

2/حب الله: حيث يتحبب إلينا سبحانه بتعريفنا بنعمه الكثيرة، برحمته بغفرانه بنصره للمؤمنين، بما ادخره لبعاده يوم القيامة.

3/تزكية النفس: حيث جاءت آيات كثيرة تتحدث عن النفس البشرية وأسرارها وكيفية تطهيرها وفضل ذلك وجزاؤه، وأخرى تتحدث عن نقيض التزكية وعاقبة ذلك في الدنيا والأخرة. في حث للإنسان على التدرج في معارج كمال النفس والبعد عن النزول بها إلى مدارك الحيوانية.

4/ الحث على العلم والمعرفة: وقد جاء في ذبك آيات كثيرة جدا، تنص على النظر وإعمال العقل، التدبر، التفكر، القراءة، الإبصار، ويكفي أن أول ما نزل (اقرأ).

5/ الهداية، والقرآن كله جاء لهذا الغرض ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ..﴾ .

6/ التشريع: من المقاصد الكبرى للقرآن التشريع لتنظيم العبادات والمعاملات..

- يقول عبد المجيد النجار في كتابه فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب ص 160: "لا شك أن ما قدمه الإمامان (الشاطبي وابن عاشور) يعتبر مادة ثرية في الاستكشاف المقاصدي لا غنى لباحث أصولي عنها، كما أنه يعتبر قفزة نوعية في جنس البحوث الأصولية، ولكن تطور الأوضاع، واستجداد الملابسات تدعو إلى أن تُكرم هذه الثروة بتزكيتها بالبحث للبناء عليها أسا متينا، وفي مستجدات العلوم اليوم: لغوية واجتماعية ونفسية واقتصادية، ما يعين على تطوير البحوث في مسالك الكشف عن مقاصد الشريعة."

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية التي أردت من خلالها إثارة إشكالات بحثية علها تجد آذانا مختصة تنهض بالفكرة.

أقول أن مقاصد القرآن الكريم أوسع من مقاصد الشريعة، وهي شاملة لكل نواحي الحياة في الدنيا والآخرة.

ومقاصد القرآن متجددة تجدد معاني القرآن، الذي هو صالح لكل زمان ومكان، فلكل عصر نوازله ومستجداته ومتطلباته والتي تختلف في كثير من الأحيان عن سابقتها، مما يتحتم على علماء الأمة التجديد في استنباط مقاصد تنهض بالأمة المسلمة وتبصرها وتهديها إلى سبل تحقق من خلالها المقاصد العظمى من الوحي وهي تحقيق العبودية لله والشهادة على الناس وعمارة الأرض والفلاح في الآخرة.